(2) تهجير الفلسطينيين.. الهجرة اليهودية خلال فترة الانتداب

2023/12/31

خلال فترة الانتداب البريطاني لفلسطين، حدثت تغيرات ديموغرافية عديدة وهامة نتيجة للسياسات التي اتبعتها سلطات الانتداب، تنفيذا لوعد بلفور من جهة، وصك الانتداب من جهة ثانية، بحيث تصبح هناك أغلبية يهودية في فلسطين. سوف أستعرض في هذا المقال أهم التطورات السياسية التي حدثت خلال فترة الانتداب، والتي كان لها انعكاسات كبيرة على التركيبة السكانية والمكانية في فلسطين، ثم أسرد بعض السياسات والممارسات التي اتبعتها سلطات الانتداب البريطاني والعصابات الصهيونية لتسريع عملية الهجرة اليهودية إلى فلسطين بهدف تهجير السكان الأصليين وإحلال المهاجرين اليهود مكانهم، ما قد يساعد على فهم التخطيط الإسرائيلي والسياسات والممارسات التي تقوم بها إسرائيل الآن في قطاع غزة والضفة الغربية.

مع بدء الانتداب البريطاني عام 1920، تسارعت وتيرة تدفق المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وبدأت معها حركات الاحتجاج والمظاهرات والمقاومة ضد الإنجليز والمهاجرين اليهود في شتى أنحاء فلسطين، مطالبة بإلغاء الانتداب البريطاني ووقف الهجرة اليهودية وجلاء القوات الإنجليزية. ومن أهم هذه الحركات الانتفاضة الشعبية في مدينة يافا في الأول من أيار عام 1921، والانتفاضة الشعبية الثانية التي عرفت بثورة البراق في شهر آب 1929، والتي أعدم الإنجليز خلالها ثلاثة من المجاهدين هم فؤاد حجازي وعطا الزير ومحمد جمجوم. وفي 19 نيسان 1936 بدأ إضراب شامل في فلسطين تحول إلى ثورة مسلحة اشترك فيها الأهالي وانضم إليهم متطوعون من بعض البلدان العربية، واستمرت حتى عام 1939. وفي 29 تشرين ثاني 1947، في أعقاب قرار بريطانيا الانسحاب من فلسطين، أصدرت الأمم المتحدة قرار التقسيم رقم 181، والذي يتضمن تقسيم فلسطين إلى دولتين أحدهما عربية والأخرى يهودية، على أن تبقى القدس تحت وضع دولي خاص. وفي 15 أيار 1948 أنهت بريطانيا انتدابها على فلسطين، وتم الإعلان عن قيام دولة إسرائيل على معظم الأراضي الفلسطينية.

خلال فترة الانتداب التي امتدت حوالي ثمانية وعشرين عاماً، عمدت سلطات الانتداب البريطاني إلى تسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين وتشجيعهم للإقامة فيها، ما أدى إلى زيادة عدد السكان اليهود في فلسطين من حوالي 50 ألف شخص، يمثلون حوالي 7% من عدد السكان عام 1918، إلى حوالي 650 ألف شخص، يمثلون حوالي 31.5% من إجمالي عدد السكان في فلسطين عام 1948. أي أن عدد السكان اليهود تضاعف 13 مرة خلال تلك الفترة، في حين تضاعف عدد السكان العرب حوالي مرتين فقط خلال نفس الفترة. وكانت معظم الزيادة في عدد السكان اليهود الفترة

بالدرجة الأولى عن عامل الهجرة. ويقدّر عدد اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين خلال الفترة 1919–1948 بحوالي 483 ألف نسمة، حوالي 90% منهم قدموا من أوروبا وأمريكا مقابل 10% من بلدان آسيا وأفريقيا.

وقد دخل عدد كبير من اليهود إلى فلسطين بجوازات سفر مزيفة أو بصورة غير شرعية، مثل الدخول إلى فلسطين لحضور الحفلات الرياضية والبقاء فيها بعد انتهاء تلك الحفلات، أو الدخول تحت ستار المعارض الصناعية، أو التسلل عن طريق البحر، أو القدوم بحجة الدراسة في الجامعة العبرية والمدارس الزراعية، أو القدوم إلى فلسطين من أجل السياحة أو للتطوع في الجيش الإنجليزي، أو الدخول عن طريق لم جمع شمل الأبناء وعقود الجواز الصوري.

ومع تسارع الهجرة اليهودية إلى فلسطين خلال فترة الانتداب، تسارعت أيضا عملية الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية. فقد كانت مساحة الأراضي التي يملكها اليهود في فلسطين قبل بداية الحرب العالمية الأولى محدودة جدا، ولا تتعدى 1,5% من مساحة فلسطين التاريخية. ومع صدور وعد بلفور واعتماد صك الانتداب من قبل مجلس الحلفاء في سان ريمو أولا ثم إقراره من عصبة الأمم لاحقا، زادت عملية الهجرة والسيطرة اليهودية على الأرض الفلسطينية.

وقد استخدم اليهود أساليب عديدة للاستيلاء على الأراضي، من بينها شراء آلاف الدونمات خصوصا في منطقة مرج ابن عامر (من عائلة سرسق اللبنانية) وفي منطقة وادي الحوارث (من آل التيان) وفي المناطق الشمالية والساحلية في فلسطين نظرا لخصوبة أرضها. وقد أدت هذه الصفقات إلى طرد عشرات العائلات الفلسطينية وأفقدتهم مصادر رزقهم. وفي كثير من الأحيان استخدم الصهاينة العنف والقتل كوسيلة لإرهاب السكان العرب ولإجلائهم عن أرضهم.

كما لجأت سلطات الانتداب البريطاني إلى وسائل متنوعة لنقل ملكية الأراضي في فلسطين إلى اليهود، من بينها الاعتراف رسميا بالصندوق القومي اليهودي كمؤسسة ذات منفعة عامة يحق لها شراء الأراضي في فلسطين وتأجيرها إلى اليهود القادمين من الخارج، وسن التشريعات والقوانين التي تسهل عمليات نقل الأراضي لليهود مثل "قانون نزع ملكية الأراضي" وقانون "تسوية حقوق ملكية الأراضي"، بالإضافة إلى التضييق الاقتصادي على أصحاب الأراضي من خلال فرض ضرائب باهظة عليهم مما كان يضطرهم للاستدانة ومن ثم لبيع أراضيهم لسداد الديون المتراكمة عليهم، كما حدث في منطقتي الحولة وطبريا.

وقد نجم عن هذه السياسات والإجراءات عمليات تهويد متواصلة للأراضي الفلسطينية، فزاد عدد المستوطنات اليهودية من 73 مستوطنة مع بداية الانتداب البريطاني إلى 363 مستوطنة مع نهاية الانتداب عام 1948. كما تضاعفت مساحة الأراضي المملوكة لليهود خلال فترة الانتداب حوالي ثلاث أضعاف. وتشير التقديرات إلى أن مجموع المساحات التي كان يملكها اليهود قد ارتفعت من 650 ألف دونم ، تمثل حوالي 2.4% من مساحة فلسطين التاريخية، مع بداية الانتداب البريطاني عام 1920 إلى حوالي 1,8 مليون دونم، أي أقل من 7% من مساحة فلسطين، مع نهاية فترة الانتداب عام 1948، ويشمل ذلك حوالي 195,000 دونم من أراضي الدولة سلمتها سلطات الانتداب للجمعيات الصهيونية إثر الضغوط التي مارستها عليها الوكالة اليهودية.